

مرجعية الموروث الشعبي الطارقي/ الصحراوي في رواية المجوس لـ إبراهيم الكوني

-دراسة في الفضاء الأسطوري والخرافة الشعبية-

الأستاذة: ابتسام لهلالي

قسم اللغة العربية وآدابها-جامعة محمد خيضر -بسكرة(الجزائر)

ibtissemlahlali2016@gmail.com

الملخص:

رواية "المجوس" لإبراهيم الكوني تركيبة سردية فريدة من نوعها خارقة بحوادثها وعوالمها الأسطورية، هي سينما تصويرية للفضاء الصحراوي بخرافاته وعاداته وتقاليده وقيمه، ونواميسه الخالدة التي أبت الاندثار والزوال، بل تتحين الفرص دائما لتظهر وترافق الإنسان الصحراوي الطارقي لتنبير طريقه. هي عالم مفعم بالأساطير والحكايات العجيبة والغريبة، تظهر فيه قوة سلطة السحر والشعوذة لدى سكان الطوارق. استدلت فيها بخرافات شعبية طارقية استمدت ديمومتها من تداولها الشفهي بألسن العجائز والأجداد.

Résumé :

Le roman "Almajous" d'Ibrahim Al-Kawni est une composition descriptive unique dans son genre de part ses événements et facteurs légendaires de l'espace désertique avec ses créations, ses coutumes, ses traditions et ses valeurs, ses lois intemporelles et éternelles disparaissent mais réapparaissent à chaque moment ou l'occasion le permet pour accompagner l'homme du désert sahraoui du coup éclairer son chemin. C'est un univers plein de légendes étranges et de contes mystérieux, montrant le pouvoir de la magie et de la sorcellerie chez les Touaregs. Et il a identifié dans son oeuvre les mythes populaire targui dont la pérennité et subsistance tiennent de la transmission orale de leurs parents, grands parents et ancêtres

الكلمات المفتاحية: ابراهيم الكوني، الرواية الصحراوية، الأسطورة، الخرافة، الأدب

الشعبي، الأبعاد الدلالية.

تمهيد:

سرد ابراهيم الكوني عبر خطابه الملحمي الروائي "المجوس" قصة الصراع بين عالمي السماء والأرض، أو صراع العالم العلوي بقيمه المقدسة والعالم السفلي بأطماعه الدونية المجردة من القيم المثالية الفاضلة، بين عالم الإنس وعالم الخفاء. رواية المجوس سرد لحالة الانقسام الروحي للإنسان الصحراوي الطارقي الأمازيغي، الذي ضاع وسط نواميس الصحراء الأبدية العليا، وبين السعي وراء الطمع والجشع المادي الذي أدى إلى اللااستقرار النفسي والأخلاقي.

اعتمد الروائي في نسجه لخيوط الخطاب الصحراوي، على مكونات سردية متنوعة أدت إلى غموض الأحداث وصعوبة فهم التركيبة السردية، حتى بدت لقارئها مجموعة طلاسم صوفية فلسفية، بل تجاوز الروائي حدود المؤلف السردية وقدم حبكة نصية امتزجت فيها أصوات البشر بالحيوان والجماد، تناولت فيها أيدي الجان وعالم الخفاء، وجعلها شريكا ناطقا في الخطاب الروائي. من خلال هذه التقنيات استطاع أن يصور حياة الرجل الأزرق الطارقي الصحراوي، طبيعة معيشتة، لباسه الغريب، نواميسه التي تبدو دستورا يرفض الاستغناء عنه، كما توضح الرواية أهمية دور المرأة الطارقية التي تظهر بلباسها وزينتها، وفائها لعاداتها، وقوتها في جذب الانتباه بل قد تكون محور الصراع.

استطاع إبراهيم الكوني استدراج قارئه إلى العوالم الخفية والمجهولة من الفضاء الشاسع للصحراء الكبرى، عبر استناده على مجموعة من الخطابات الشعبية التي تقوم عليها الثقافة الطارقية (أساطير، خرافات، حكايات شعبية..). وفي خضم حديثنا على قوة السرد الروائي والعجائبي في رواية المجوس، وعظمة المخيال الصحراوي لابراهيم الكوني تستوقفنا مجموعة من الاشكاليات: كيف تشكلت ملامح الصحراء في رواية المجوس؟ مادور الأسطورة في تكوين المجتمع؟ وما هي قيمتها الدينية والاجتماعية لدى مجتمع الطوارق؟ إلى أي مدى تساهم الخرافة الشعبية في الكشف عن ملامح المجتمع الطارقي؟ ما الأبعاد الدلالية إثر استدعاء الروائي لمرجعياته الشعبية الصحراوية؟

1. تجلي النص الشعبي الصحراوي في رواية "المجوس" لإبراهيم الكوني:

وظّف إبراهيم الكوني في نصه الروائي "المجوس" مجموعة من الخطابات الشعبية، التي اعتمدها الثقافة الطارقية هوية حضارية، خاصة أن للطوارق امتدادات خارج ليبيا، في الجزائر والنيجر وموريتانيا ومالي وبوركينا فاسو وتشاد، وبالتالي هي كيان له اسمه وثقافته، عاداته وتقاليده. وباعتبار إبراهيم الكوني ينتسب لهذا الكيان فإنه لم يتنصل من أصوله بل استعرض ثقافته الطارقية الصحراوية في قالب أدبي فني لينافس بذلك أهم الكتاب في العالم بفضل إيديولوجيته في الكتابة، ليغدو أدبه عالميا مترجما إلى عدة لغات ومنتشرا في جل دول العالم.

وسنحاول عبر هذه الدراسة أن نستعرض أهم النصوص الشعبية التي وظّفها الكوني في روايته "المجوس" من خلال عنصري: الفضاء الأسطوري والخرافة الشعبية الطارقية:

1.1. الفضاء الأسطوري:

قبل أن نجوب الفضاء الأسطوري في رواية "المجوس" لا بد لنا من وقفة تعريفية للأسطورة؛ هذا النص الشعبي الذي شكّل بؤرة اهتمام قديما وحديثا، ولا يزال محل استفهام لدى الكثير من الباحثين.

الأسطورة هي نظام شائك من المعتقدات والممارسات والطقوس، هي الإيمان بما اعتقده الإنسان بأنه مقدس. هذا ما جعلها تحظى بسلطة عظيمة على عقل الإنسان وتفكيره؛ «الأسطورة تثير جوانب النفس الإنسانية، وأن المجتمع الذي يفقد أساطيره بدائيا كان أم متحضرا يعاني كارثة أخلاقية تعادل فقدان الإنسان لروحه»¹، لهذا يعتبرها الإنسان الطارقي الصحراوي أحد القيم المثالية والنواميس العليا التي تبقى سندا له، ومدونة في لوح محفوظ خوفا منها وعلما.

وفي هذا الصدد يتحدث مرسيا إلياد (Mircea Eliade) في كتابه "البحث عن التاريخ والمعنى" عن أهمية الأسطورة بالنسبة لمنتجها، فيقول: «الميثولوجيا تعتبر بمثابة التاريخ المقدس للعشيرة المعنية، وأنها تفسر الواقع بأسره وتبرر تناقضاته ناهيك أنها تنم كذلك عن تراتب في تعاقب الأحداث الخرافية التي ترومها، وبصورة عامة يمكننا القول إن كل أسطورة تروي كيف أن شيئا من الأشياء قد وجد سبيله إلى الوجود: من العالم والإنسان إلى هذا النوع الحيواني أو ذلك، أو هذه المؤسسة أو تلك...»²، الأسطورة بالنسبة للعقل الجمعي هي منظومة من

المعتقدات والعادات والتقاليد، والطقوس والمحرمات التي يمنع تجاوزها أو المساس بها؛ لأنها تمثل تاريخهم وثقافتهم.

وإذا أردنا ضبط ماهية الأسطورة فإننا سنجد عددا لا حصر له من التعريفات الغير متفق عليها، ولكن بمفهومها العام هي: «المفاهيم والأفكار المعبر عنها بأقوال أو الكتابات المقدسة التي تداولت ثم كتبت وحُفظت بعناية خاصة وبالأخص داخل المعابد، فالقداسة شرط أساسي يخرجها من مجرد كونها قولاً وحديثاً إلى شكل أسطوري يكسب الكلام طابعا معيناً»³. هذا ما زاد من سلطتها وقوتها داخل منظومة القيم الإنسانية ماضيا أم حاضرا. أما في "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب" الأسطورة هي: «محاولة لتفسير صعوبة فهم النظم الكونية كما تبدو للإنسان، إما من الناحية الأخلاقية أو من الناحية الميتافيزيقية، فالأسطورة بمثابة تفسير يقوم به الإنسان لأسرار لا يفهمها»⁴. أصبحت الأسطورة تمارس سلطة قوية على الإنسان الذي أصبح أسيرا لها، ولقوماتها التي تمنعه من الحرية المطلقة التي يمارس فيها رغباته وطموحاته، ليغدو مقيدا أمام منظومة القوانين والمعتقدات باعتبارها قوة تتعالى على العالم الإنساني الديني.

في رواية "المجوس" تجلت ملامح التوظيف الأسطوري من خلال مجموعة من الرموز والمعتقدات، التي شكلت بالنسبة للطوارق أساطير مقدسة، يتوددون لها بالنذور والقرابين طلبا للرضى والعفو أو لقضاء حاجة. و عبر هذه الدراسة سنلخص أبرز الأساطير الواردة في الرواية:

أ. اللباس:

يتفرد الطوارق بأزياء خاصة تميزهم عن باقي الشعوب سواء للمرأة أم للرجل، ويعتبر الكثير من الطوارق أن تغيير الطارقي لملبسه هو بمثابة تجاوز للعرف الاجتماعي ولقداسة الناموس الصحراوي الذي ميز الطارقي عن باقي شعوب العالم .

أعتبر اللباس أهم تقليد اجتماعي للطوارق بل: «تحولت مع الوقت إلى تعبيرات اجتماعية ووجدانية ذات دلالات معنوية عميقة، فقد عبروا عن عشقهم للحرية، وتشوفهم لها في لباسهم الأزرق المميز (...). هو أيضا رمز السلام والنماء لديهم، حتى أصبح علما عليهم، فلقبوا من جيرانهم ب"الرجال الزرق"»⁵؛ هوية الرجل الطارقي تكمن في اللثام الذي يضعه على فمه ويغطي نصف وجهه، وقد أورد "الكوني" في روايته "المجوس" وصفا لشيخ القبيلة قائلا: «شيخ القبيلة بلباسه الأزرق الذي يثير الرهبة في النفوس»⁶، هذا اللباس يحمل هبة ووقارا، بالنسبة لهم هو أحد النواميس المقدسة التي دخلت الفضاء الأسطوري الصحراوي و تحصّنت بداخله.

يعود سر هذا اللباس حسب الكاتب **أكناته ولد النقرة** في كتابه **"الطوارق.. من الهوية إلى القضية"**: إلى ما «أورده الحافظ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير حول ذلك، والرواية بلفظه: "وقيل أن سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلى المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن تلبس ثياب الرجال ويتلثمن، ويضيقنه حتى لا يُعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدارت النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا فقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن حتى الموت»⁷، سرد الكاتب قصة اللثام الطارقي، التي تشكلت من خلالها موقف المجتمع الأمازيغي الطارقي من نزع الرجل الطارقي لثامه، الذي تحول لباسه إلى أسطورة مقدسة تمنحه الهيبة والوقار.

وعلى غرار الرجل تتميز النساء الطارقيات الصحراويات بلباس وزينة وحلي يميزهن عن باقي النسوة، وركز إبراهيم الكوني على وصف اللباس النسوي فذكره في عدة محطات من الرواية، حين سرد قصة استقبال النسوة لأزواجهن من الحروب فيقول: « ارتدت كل امرأة افخر اللباس "الرفيغت" الناصعة، فوقها ثوب "الطارقي" الأزرق ثم رداء "تامبركامت" الأرجواني. في الأصابع المخضبة بالحناء لمعت الخواتم الفضية، في الأذان تدلت الأقراط، وفي المعاصم الرفيعة استقرت الأساور وقلائد الخرز الملون استقرت يومها في كل جيد وحرصن على التخلص من حلي الذهب تحسبا للسوء الذي يجلبه المعدن الشيطاني»⁸ هو وصف دقيق لصورة المرأة الطارقية زينتها ولباسها التقليدي الذي طالما رافقها في كل المناسبات، وتفضل النساء حلي الفضة على الذهب؛ لأن الأخير يجلب الحظ السيئ بل هو سبب خراب الصحراء، كما يقول في أحد مواضع السرد «المعدن الأصفر أصل بلاء العالمين»⁹ هو نوع من التشاؤم الذي توليه المرأة والرجل على حد السواء للذهب "المعدن الأصفر".

ب. الحيوان:

في مضامين رواية "المجوس" توغل إبراهيم الكوني بمخيلته داخل عالم الحيوان، حين منحه أهمية بلغت درجة الأنسنة، ولم يكن اختياره للحيوانات اعتباريا بل استنادا لدورها وقدسيتهما لدى الطوارق، وتقتصر دراستنا على: الودّان، طائر الفردوس.

الودّان: حيوان بري له ظهور قوي في الصحراء « تيس جبلي انقرض منذ القرن السابع عشر وبقي بالصحراء ويعتقد الطوارق اعتقادا طوطميا انه حيوان مقدس مسكون بروح الجد الأكبر للقبيلة¹⁰ » وهذا ما نلاحظه من طوطمية وحلول* في رواية المجوس إذ ارتبط أوداد* بجسم الودّان وحلّ فيه.

وأما هنري لوت Henry Lotte في كتابه "لوحات تاسيلي" في معرض حديثه عن الودّان المقدس عند أهل الصحراء يقول: « يلوح أن المؤلفون* كان يلعب دورا مهما في معتقدات سكان الصحراء القدماء، فاللوحات التي تمثل هذا الوحش تملأ جدران الكهوف(...) ورجل الطوارق الذي ينطلق لصيد المؤلفون، فإنه لا يخبر أحدا كي لا يجلب النحس لنفسه، ويضع بعض الصيادين أحجارا على رؤوسهم وينطلقون قافزين، مرددين بعض العبارات السحرية الغامضة»¹¹ وإيمانهم المطلق بقدسية الودّان جعله كائنا أسطوريا له أهمية في نسب الطوارق،

* الحلول: معناه أن يحل إنسان في جسد حيوان، أو قد يحدث العكس. ونجدها لدى كثير من الديانات باسم التناسخ.

* أحد شخصيات الرواية.

* المؤلفون: معناها الودان.

وتعدى الأمر لدرجة حلول هذا الكائن الأسطوري في جسد إنسان. يقول إبراهيم الكوني «الدرويش نفسه رأى صيادا من النجع انخطف وحلّ في الودّان»¹² هذا ما زاد من قدسية هذا الكائن وأسطوريته.

طائر الفردوس: هو طائر مجهول استخدمه الروائي ليغوص بنا في ثنايا العالم الآخر العلوي أين تكون كل الكائنات أسطورية متعالية، وإن كان هذا الطائر استعار اسمه من عالم السماوات العلوي فإن له وجود على أرض الواقع كما تقول **اعتدال عثمان** طائر الفردوس هو: «طائر الصحراء "مولا مولا" تعاد تسميته مرات»¹³ وفي مضمون الرواية نجد لهذا الطائر دور في جذب انتباه أوداد ومحاولة استدراجه إلى العالم العلوي بعيدا عن حياة السهل التي تعيش حالة اللااستقرار، بفضل أطماع سكانها الذين يلاحقون التبر* بغية الوصول للسعادة المادية، وعلى إثرها علّم طائر الفردوس ، أوداد الغناء لينقله عبر شجونه الناعمة إلى حياة الفردوس المفقود لدى سكان الطوارق.

ويصف إبراهيم الكوني صوت الطائر قائلا: «غناء مجهول حزين يزيد من غموض الصحراء وجلال الجبل. يوقظ في الصدر وحشية خفية ويثير شهية وحشية. ينطق بالمجهول ويوجي بسر الموت والحياة»¹⁴ ، ثم يضيف بقوله: «رفع صوته مقلدا طائر الفردوس المجهول فتردد الصدى السحري في القمم السماوية والتقطته أفواه الكهوف وأعادته إلى الوادي بعمق أسطوري»¹⁵ هي سيمفونيات مشفرة ترسل دلالات رمزية، حملت البطل من عالم أرضي إلى عالم سماوي، ليغوص في جدلية المقدس والمدنس، وإشكالية الحياة والموت، وثنائيات أخرى لا حل لها .

ج. القرابين والندور: الندور والقرابين عبارة عن مجموعة عادات وتقاليدها تمثل جزء مهما من ثقافة شعوب العالم، لكن بالنسبة لسكان الطوارق الأمازيغ، تحولت تلك القرابين والندور من مجرد عادة شعبية إلى دلالة رمزية أكسبها بعدها الميتافيزيقي قيمة مقدسة لا تخلو من هالات أسطورية.

كشف إبراهيم الكوني في رواية "المجوس" عن كنز شعبي يؤمن به الطوارق ويجلونه لدرجة أسطرته، يمارسونه وقت الحاجة حين المرض أو طلبا لمغفرة أو لقضاء حاجة أو لردّ السوء والنحس، وقد صوّر الروائي جملة من الحالات التي يتقرب فيها الطارقي بالندور والقرابين:

* التبر: الذهب

رد القبلي: ويتواجد بكثرة في الرواية؛ لأنه المشكلة الطبيعية التي لازمت سكان الصحراء طوال حياتهم، واعتبروها قدرهم الأبدي، ولا يمكن أن يتخلصوا منه إلا عن طريق القرابين والندور وإقامة الطقوس، وسنستعرض بعض الشواهد الدالة على ذلك من نص الرواية:

يقول إبراهيم الكوني في هذا الصدد: «قام أولئك الذين جربوا العطش بتوزيع الصدقات سرا على المساكين والجيران ندرا لله كي يهدئ من جنون القبلي»¹⁶ ثم يضيف في محطات سردية أخرى: «بدأ أهل السهل الطقوس وسفحوا دم القرابين قبل أن ينتصف الشهر بثلاثة أيام، جاءت العرافة واستولت على عظمة الكتف في كل حيوان ذبيح لترى فيها خطط العدو* . ثم أخذتها إلى بيتها ودفنتها تحت الركيزة بعد أن وشمتمها بالتمائم الخفية. جاء دور الفقهاء فاستعانوا بالقرآن وسطروا الأحجية والتعاويد ودسوها في جلود الغزلان»¹⁷، قسوة القبلي هي التي أجبرت السكان على إقامة الطقوس القرابينية، تتكفل العرافة بتأدية تلك القرابين تقريبا للإله أمناي(إله القبلي) لإيقاف رياحه الحارة.

ووصف إبراهيم الكوني طبيعة هذا الإله قائلا: «أمناي إله القبلي، حفره الريح في فج بين أعلى جبلين شمال تينمبكتو رأسه معمم بقناع حجري موشى بطبقة من الحصى يغطي العينين وينسدل تحت الأنف المكابر المنصوب إلى أعلى نحو السماوات... يتربع على قاعدة صخرية متحركة.. في حال السكينة. أما إذا جاع وأراد القرابين أثار الزوبعة... ولن يتوقف القبلي ويعود للإله إلى وضعه الطبيعي إلا عندما يهرع أهل الصحراء ويلقوا له، في الهاوية، بأجمل عذراء. هكذا استمر منذ أجيال لا يعلم احد للبداية تاريخا»¹⁸ هكذا تُقدم القرابين البشرية لدى سكان الطوارق وفق تصوير إبراهيم الكوني في روايته "المجوس" بناءً على مزاج الإله أمناي الذي يثير زوبعته الحارة، ولا يهدأ إلا بقربان يشبع رغبته من فتاة عذراء من أجمل فتيات القبيلة.

واعتبر أهل الطوارق أن القبلي قدرهم ولا يجوز لعنته أو التذمر منه؛ لأن: «الريح رسول القدر إلى صحراء البشر تختار منهم قرابين تقدمهم طعاما للآلهة»¹⁹، وهكذا أصبحت القرابين عادة مقدسة، مادام القبلي لا يفارق الصحراء.

د. أسطورة "واو": في رواية المجوس يبدع إبراهيم الكوني في سرد أحداثه داخل عوالم تزخر بالأساطير والخوارق الفوق-طبيعية ليمنح بعدا أسطوريا لفضاءاته المتنوعة.

* يقصد هنا بالعدو هو القبلي

أسطورة واو التي شغلت حيزا كبيرا داخل النص الروائي هي فردوس مفقود يبحث عنه الطوارق، فردوس خال من الطمع والدناسة المادية، عالم تتعالى فيه أصوات وشجون نقية صافية تتغنى بصفوة المكان وقداسته؛ «واو هي الأسطورة الصحراوية التي تشير إلى واحة لا يعثر عليها إلا التائهون الذين فقدوا الأمل في النجاة... ما إن يخرج الضيف من أسوارها حتى تختفي»²⁰، وأما إبراهيم الكوني فرأى بأن: «واو لا تموت ولا يمكن الاستيلاء عليها لأن لها ألف روح و لأنها خالدة ونحن زائلون»²¹ هي عالم علوي أبدي لا يزول هو عالم الفردوس المفقود.

وقد حُرم الطوارق من "واو" نتيجة خطيئة جدهم الأول «يد الإنسان نجسة منذ أن عصى جدنا الأول سلطان واو وخذعه»²²، في هذه المقولة يستوقفنا تناص ديني يذكرنا بقصة سيدنا آدم وأمنا حواء، إذ تجاوزوا أمر ربهم حين حذرهم ألا يقربا من الشجرة، ولكنهم عصوه فأخرجهم من السماء وأنزلهم إلى الأرض، وتحول الإنسان من درجات التقديس إلى دركات التدنيس لتبدأ متاعب الإنسان وشقائه.

استطاع إبراهيم الكوني بقوة مخيلته تقديم وصف لهذه الواحة المقدسة، وكأنها الجنة التي سيلاقيها المؤمنون بعد رحلة البعث والحساب، فيقول: «وجد نفسه يستلقي على ظهره على فراش من ريش، تحيط به وسائد منقوشة، محشوة بالقطن والصوف والريش. الجدران شفافة، مغطاة بغلالة ناصعة... عند القاعدة على طول امتداد قد الجدران تتضافر ألسنه خضراء من العشب، يشطرها في الوسط شريط طويل من الزهور ... حتى أنها تبدو مثل قوس قزح»²³ ويستطرد في وصفه العجيب الدقيق: «في الواحة خيم سكون جليل. السكون الذي يعبده الحكماء ويعيش في جنته المعمرون القدماء. ولكن ثمة شيء مدهش يخدش من قداسة هذا الحرم. يسمع عن بعد وفي فترات متباعدة متقطعة غناء الطيور. غناء خفيف متناسق بهيج أثار في نفسه حنيناً غامضاً وذكره بأنه لا بد أن يكون في ملكوت الفردوس الصحراوي. الواحة التي يحلم بها ابن الصحراء منذ يولد إلى يوم يموت»²⁴ نعم "واو" هي الفردوس الصحراوي الذي يبحث عنه، هو محور النجاة من الخطايا، فضاء للراحة والسكون بعيدا عن العالم الدوني الذي يعيش مقيدا بأصفاذ المادة والطمع.

2.1. الخرافة الشعبية الطارقية:

يزخر نص المجوس لإبراهيم الكوني بالكثير من النصوص الشعبية التي استوحاها من بيئته الطارقية الأمازيغية، والتي شكلت أبرز المعالم الثقافية للكيان الطارقي الصحراوي. ولعل

الخرافة الشعبية لدى سكان الطوارق هي الأكثر حضوراً نظراً لقدم هذا النص الذي يميز طبيعة كل الشعوب الإنسانية التي آمنت بالخوارق وعالم الأرواح. رواية المجوس مليئة بالخرافات الشعبية سنحاول حصر بعض منها:

*في مستهل الرواية لاحظنا قصصاً لا تمت للمنطق بأية صلة، ولكنها بالنسبة لأهلها هي قصص تحولت بفعل تناقلها الشفهي عبر الزمن إلى حقائق مطلقة، فمثلاً قصة **السلسلة الجبلية "أكاكوس"** التي انفصل منها جبلين بفعل التحولات المناخية والجيولوجية، لكنها في الرواية نجد لها قصة أخرى: «عن سلسلة "أكاكوس" المكابرة انفصل جبلان خرافيان وتاهوا في الصحراء. أحدهما استلقى جنوباً إلى جوار السلسلة الأم فبدأ أقصر قامته من شقيقه الضال وإن جراه في التطاول نحو السماوات ببنايين جبارين»²⁵ ثم يضيف: «تروي العجائز أن الخصمين الأبديين قد قاما من قديم الزمان بتقاسم الصحراء: وأصبحت الصحراء الجنوبية منطقة نفوذ القبلي. وفاز المطر بالحمادة الشمالية. ولم يخل الطرفان بالميثاق إلا في حالات نادرة»²⁶، منحوا للجبل الذي استلقي في الجهة الجنوبية التي غزاها القبلي، ولم يرحمها اسم جبل "أيدينان" الذي تحول من حالة السكون إلى الحركة، ومن جماد إلى إنسان يتحدث ويتحاور مع ملك الجان الذي أراد أن يستوطن في قمته: «ولم يكذب يقطع السهل-يقصد جبل أيدينان- حتى اعترضه ملك الجن وقال له: نحن أيضاً قررنا أن نستقر في أرض وبنينا لشتاتنا وطننا. أنهكنا التسكع في الفلوات وعانينا من اضطهاد الإنس الرجيم... جاء إلى الصحراء البكر الأغراب والمغامرون واللصوص. انتهكوها ونهبوا كنوزنا. ولم نجد في القارة الصحراوية كلها سكناً أنسب ولا مأوى من هذا الصرح العظيم الذي يقف على رأسك. فهل تبيعنا نفسك مقابل أن نكفل لك الحماية من القبلي والرمل؟»²⁷، هنا يكمن سر الخطاب العجائبي الذي يتداخل فيه السرد بين الجماد وعالم الخفاء/الجان بلغة إنسية؛ وكأن إبراهيم الكوني فسح المجال لكل المكونات السردية التي وظيفها حق الخطاب والتحدث ليأنس الجماد والجان.

وفي محطات أخرى وظّف الروائي خرافة شعبية تفيد بسوء استعمال الذهب أو محاولة التقرب منه؛ لأنه سيجلب النحس والسوء للفرد والجماعة، وقد اعتبروا أن: «التبر سحر من صنع الشيطان»²⁸ ولكن اعتقادهم تجاوز حدود الخرافة، ليصل مبلغ تحريم استعماله ليتخلصوا من الجلال الأبدى (القبلي)، والقدر الذي سيبقى يلاحقهم مادام الذهب يسكن قلوبهم، هذا ما نطق به شيخ الطريقة القادرية: «نبوءة الخلاص تقوم على التخلص من المعدن الأصفر وتجريد النساء من حلين الذهبية... حرمت النساء في الصحراء ارتداء

* استخدم لفظة التبر بديلاً عن مصطلح الذهب.

المصنوعات الذهبية منذ ذلك الوقت. لأن الفرقاء أجمعوا في النهاية أن مالك الذهب مملوك وروحه دمية في يد القوى الخفية»²⁹ وحجتهم في ذلك: «كل من عبد الذهب أقام في قلبه معبدا لشعائر المجوس»³⁰ ومفاد هذا القول من ملك الذهب سيجلب لنفسه السوء والأذى؛ وينطلق معتقدتهم الخرافي أنه مادام الإنسان أصبح عبدا للذهب فإنه سيصبح مملوكا من طرف الجان.

فسارع النسوة للتخلص من الذهب خوفا من السوء الذي سيلاحقهم، واعتبر سكان الطوارق: «يوم تخلصهم من المعدن الأصفر هو يوم الطهارة»³¹، الطهارة والخلص من ذنب لباس الذهب الأصفر (التبر).

***الدرويش** هذا الإنسان البسيط الذي يعيش مذلولاً في غالب الأمر عند الكثير من المجتمعات، لا مسكن ولا مأوى له. هو عند الطوارق قوة يهابها الناس؛ لأن الله خلق بداخله الوحي والنبوءة، من هذا المعتقد الخرافي انطلقت قيم الطوارق في احترام الدرويش، وما يمكن أن يحدث لهم بمجرد أن يحزن أو يعيش الشقاء «دموع الدرويش تحرق القلب والبدن تجر الولايات والبلاوي، والفأل يزداد سوء عندما يكون الدرويش يتيماً»³² واعتبروه كأئنا غريباً عن البشر العاديين «العجائز تقول أن شفاه الدراويش تتكلم لغة أخرى غريبة»³³. استناداً على معتقدات الطوارق الخرافية، حوّل إبراهيم الكوني شخصية الدرويش البسيطة إلى شخصية خرافية يحظى فيها بالاحترام والتقدير والتبجيل.

2. دلالة حضور النص الشعبي الصحراوي في رواية المجوس لإبراهيم الكوني:

إبراهيم الكوني كغيره من المبدعين حاول أن يحمل ثقافة الطوارق عاداتهم، تقاليدهم ونواميسهم المقدسة، أساطيرهم وخرافاتهم. ويرسل من خلالها رسالة فنية حضارية، إلى العالم ليكشف الوجه الآخر للفضاء الصحراوي، ويغير تلك الصورة النمطية المتداولة في عقول المجتمعات العربية والغربية.

ترجمة إبراهيم الكوني لمعالم الصحراء الغامضة في نصه الأدبي "المجوس" هو إنجاز أدبي، استطاع من خلاله أن ينتج فيلماً سينمائياً ضخماً يحكي معاناة الطوارق، ومعيشتهم البسيطة والصعبة في آن واحد، قصة لباسهم وقديسيتهم التي تحولت عبر الأزمان إلى أسطورة تحكي حياة الرجل الأزرق والمرأة الطارقية.

توظيف الكوني لنصوص شعبية مثل الأساطير والخرافات الشعبية، امتياز في جعل إبراهيم الكوني يطرق بوابة الأدب العالمي الراقي من أبوابه الواسعة، ويجتاح جوائز أدبية عالمية لم يستطع أقرانه العرب أن يجازوا بها.

عبر نصوصه المستوحاة من طبيعة صحراء الطوارق وأصالتهم، استطاع الكاتب أن يغوص في ثنايا الميثولوجيا الساحرة، والأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية التي طغت في خطابه السردي، واصفة طبيعة الحياة الطارقية الصحراوية بكل عاداتها وتقاليدها.

ترك إبراهيم الكوني قارئه يسبح في فضاء الدلالات، ويحاول فك الشفرة السردية ليستطيع فهم الرموز الموظفة في رواية "المجوس". وعليه فإن اعتماد الروائي على توظيف النص الشعبي في رواية المجوس بكل حمولته الثقافية والدينية والتاريخية والاجتماعية، يحوي على جملة من الدلالات:

1. دلالة توظيف النصوص الشعبية الطارقية في عمل روائي يعد نقلة نوعية في مسار الخطاب الأدبي العربي.
2. إبراهيم الكوني مهّد لبنية الخطاب الصحراوي من خلال تصوير طبيعة الصحراء، بكل عاداتها وتقاليدها ونواميسها المقدسة ليؤسس مشروعاً سردياً يهتم بالرواية الصحراوية.
3. القارئ لنص المجوس يكتشف مدى قوة مخيال الروائي، ليبرز قدرته في السيطرة على المكونات السردية التي وظفها، واللعب بالإيقونات السردية، ليحوّل نصه من خطاب مكتوب إلى فيلم سينمائي يصور حقيقة الطوارق في الصحراء.
4. بروز الخطاب العجائبي بصورة كبيرة في نص إبراهيم الكوني، من خلال التواشج الفني بين السرد الأسطوري والخرافي بالواقع الطارقي الصحراوي وتاريخه.
5. رواية المجوس للروائي إبراهيم الكوني هي رائعة فنية من روائع الأدب العالمي، يمتزج فيه العالم الخرافي والسحري، بالعجائبي الأسطوري بلمسة سردية خيالية، يراعي فيها مبدأ الامتياز الفني والإبداع الفكري دون تجاهل أصالة الطوارق وتقاليدهم .
6. برهن إبراهيم الكوني من خلال توظيفه للنص الشعبي في روايته "المجوس" على قوته الثقافية والفكرية وإحاطته بكل معتقدات الطوارق وتاريخهم الكبير، وكشف للقراء عن المصدر الذي يلهم قلمه الأدبي.

الهوامش:

- ¹ الأسطورة ... توثيق حضاري: قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، 2009، ص24.
- ² مرسيا إلياد: البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، تر: سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، ط1، لبنان، 2007، ص166.
- ³ الأسطورة ... توثيق حضاري، ص27.
- ⁴ مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984، ص32.
- ⁵ أكتانه ولد النقرة: الطوارق.. من الهوية الى القضية، مطبعة طوب بريس الرباط، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2014، الرباط، ص74.
- ⁶ ابراهيم الكوني: المجوس، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، ج1، 1992، بيروت، لبنان، ص10.
- ⁷ أكتانه ولد النقرة: الطوارق.. من الهوية الى القضية، ص74، 75.
- ⁸ الرواية ، ص26.
- ⁹ الرواية، ص33.
- ¹⁰ اعتدال عثمان: قراءة استطلاعية في اعمال ابراهيم الكوني، ص229.
- ¹¹ هنري لوت: لوحات تاسيلي، تر: أنيس زكي حسن، مكتبة الفرجاني، (د.ط)، طرابلس، 1976، ص154.
- ¹² الرواية، ص177.
- ¹³ اعتدال عثمان: قراءة استطلاعية في اعمال ابراهيم الكوني، ص229.
- ¹⁴ الرواية، ص63.
- ¹⁵ الرواية ، ص63.
- ¹⁶ الرواية، ص87.
- ¹⁷ الرواية، ص117.
- ¹⁸ الرواية، ص131.
- ¹⁹ الرواية، ص207.
- ²⁰ اعتدال عثمان: قراءة استطلاعية في اعمال ابراهيم الكوني ، ص232.
- ²¹ الرواية، ص235.
- ²² الرواية، ص216.
- ²³ الرواية، ص311.
- ²⁴ الرواية، ص312.
- ²⁵ الرواية، ص09.
- ²⁶ الرواية ص14.
- ²⁷ الرواية، ص51.
- ²⁸ الرواية، ص44.

²⁹ الرواية ،ص56،55.

³⁰ الرواية، ص272.

³¹ الرواية، ص55.

³² الرواية، ص150.

³³ الرواية، ص163.